١ـ مفهوم السنّة الإلهية وخصائصها ومجالاتها

١/١: مفهوم السنَّة الإلهية:

إن أفضل ما قيل في تعريف السنة الإلهية أنها: طريقة الله تعالى في معاملة خلقه[١]. فهذا هو المعنى الذي يجمع ما قاله المفسرون، فقد قال الفخر الرازي: أما السنة فهي الطريقة المستقيمة والمثال المتبع[٢]. وقال الطبرسي: السنة هي العادة الجارية[٣]. ويقول ابن عاشور: السنة هي العادة والسيرة التي يلتزمها صاحبها[٤]. ويقول الإمام محمد عبده: السنن جمع سنة، وهى الطريقة المعبدة والسيرة المتبعة أو المثال المتبع[٥].

وإذا كان معنى السنة هو الطريقة المتبعة، فإن مضمونها يتحدد بحسب ما تضاف إليه، فإذا قلنا سنة رسول الله ـ فإننا نعنى طريقته التي اتبعها وداوم عليها. وإذا قلنا سنة الله تعالى فإن المقصود طريقته تعالى في معاملة خلقه بصفة عامة. وطريقة الله تعالى في معاملة خلقه، تختلف باختلاف الخلق، فهناك خلقٌ لله تعالى قسرهم على سلوك معين، لا يملكون إلا سلوكه، وليس أمامهم خيار فيه، وطريقة الله في معاملة هذا النوع من الخلق (سنته فيهم) أنه أخضعه لقوانين ثابتة عامة لا تتخلف، فدوران الأرض، وجريان الشمس، وتعاقب

---

(١) د. عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية، مؤسسة الرسالة، بدون رقم أو تاريخ ص ١٣.

(٢) الرازى، مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، مج ٣ ، ص ٥٤.

(٣) الطبرسي، مجمع البيان، ج١٥، ص٨٤.

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية، ج١٥، ص١٧٨.

(٥) الإمام محمد عبده، تفسير المنار، رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣، ج٤، ص١١٥.

الليل والنهار، وعمل أجهزة الأجسام الحية تتم طبقاً لقوانين لا تملك هذه المخلوقات حيالها شيئا، وإنما تخضع لها وتسير وفقها، واكتشاف الإنسان لهذه القوانين يمكنه من تسخيرها والاستفادة منها.

وبجانب هذا الخلق الذي قسر على سلوك معين، هناك خلق لله تعالى قد منح حرية الاختيار، ولم يقسر على سلوك محدد، وهو الخلق الذي حمل أمانة التكليف. ومن هذا الخلق النوع الإنساني، وطريقة الله تعالى في معاملة النوع الإنساني (سنته) هي إخضاع سلوكهم لقوانين مطردة ثابتة أيضا، بيد أنها تعمل من خلال نفس السلوك الإنساني. أي أنه كيفما يكون سلوك الإنسان، وموقفه من سنن الله تعالى، واستجابته لهديه، تكون طريقة الله تعالى في معاملته.

إن الله سبحانه وتعالى، قد ربط طيب الحياة بقانون، وربط التقدم أو التخلف بقانون، وربط تغيير المجتمع الإنساني من حالة إلى حالة أخرى بقانون. كما ربط النصر أو الهزيمة بقانون، وربط هلاك المجتمع أو بقاءه بقانون، كذلك فإنه تعالى قد ربط أمن المجتمعات واستقرارها بقانون... إلى آخر ما يقع بالناس والأفراد والأمم والجماعات بل الفوز في الآخرة والخسران فيها ربط بقوانين، أي أن كل ما يجرى إنما يتبع قوانين الله تعالى وسنته في معاملة خلقه، فليس هناك ـ كما قلنا ـ صدفة ولا عشوائية، وإنما أسباب ومسببات، وسنن إلهية تحكم الحياة والأحياء، فمن أخذ بهذه السنن تحققت له نتائجها الإيجابية، ومن أعرض عنها وعاندها، تحققت له نتائجها السلبية.

وهكذا تعمل سنن الله من خلال سلوك الإنسان وحريته واختياره ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[الشمس:٩-١٠]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد:١١].

ومن كل ما سبق يتضح لنا أن مفهوم السنة الإلهية هي: طريقة الله تعالى في معاملة خلقه، كل نوع من الخلق حسب المهمة التي خلق من أجلها.

٢/١: خصائص السنن الإلهية

من استقراء الآيات الكريمة في كتاب الله تعالى، التي تحدثت عن سنة الله في معاملة خلقه، يتضح لنا أن للسنة الإلهية عدداً من الخصائص، يمكن أن نورد أهمها فيما يلي:

١/٢/١: الإطراد وعدم التخلف

ذلك أن النواميس التي تحكم الحياة، جارية لا تتخلف والأمور لا تمضي جزافاً، وإنما تتبع هذه النواميس[1]. يقول الله تعالى ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا﴾[فاطر:٤٣]. إن التعبير ينفي الوجود (لن تجد) يقطع بالاطراد والاستمرارية وعدم التخلف، فيما يتعلق بالسنن الإلهية وحكمها للحياة، أي أن أول ما تتصف به السنة الإلهية هو الاطراد وعدم التخلف.

٢/٢/١: عدم التعارض بين اطراد السنة وطلاقة المشيئة

إن اطراد السنة الإلهية واستمراريتها وعدم تخلفها لا ينافي أو يتعارض مع حقيقة ثابتة هي طلاقة المشيئة الإلهية، ذلك أن مصدر السنة ومجريها هو الله سبحانه وتعالى، فالله تعالى هو الذي أعطى السنة الإلهية اطرادها واستمراريتها وثباتها وعدم تحولها أو تبدلها.

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، ط١٠، مجلد١، ص٤٧٨.